

الاسلام والعلوم الجغرافية

محاضرة ألقاها بالألمانية في رابطة الثقافة الاسلامية بهينا

الأستاذ أحمد زكي وليدى بك
أستاذ التاريخ التركى بجامعة استنبول سابقاً

إننا نبتعد شيئاً فشيئاً عن الزمن الذى كانت تعتبر فيه التحولات التى نجمت عن الفتوحات العربية والتركية والمغولية وعن هجرات هذه الأقوام من شمال شرقى وجنوب غربى آسيا نكبة على تاريخ العالم وتعد كارثة على الحضارة الانسانية . أما الآن فالعلماء أمثال هنرى بيرينيه والاخوين اسكندر وأوجين كوليشر، ثم هنا فى فينا الأستاذ روبش والأستاذة ارناباسلت، يبرهنون على العكس أن هذه الحركات لعبت دوراً عظيماً إيجابياً فى تاريخ المدنية .

إن حوادث التاريخ مرتبطة فيما بينها ، فبدون الثقافة الكلامسيكية لا يمكننا تصور وتقدير الثقافة الاسلامية ، وكذلك الحركة الثقافية الحديثة فى الشرق لا تتصور وتقدر بدون المدنية الأوروبية، وبالمثل لم تكن الثقافة الافرنجية لتقوم لها قاعة ما لم تقم المدنية الاسلامية فى التاريخ، وكما قال بيرينيه « بدون محمد لم يكن أحد يتذكر شارلمان » .

ولو لم تدخل فى الاسلام شعوب وسط آسيا (الإيرانية والتركية) لبقى الاسلام ديناً محصوراً فى غرب آسيا، ولما صار مدنية طلمية استطاعت أن تفتشر إلى شواطئ المحيط الهادى، ولو لم يفتح المسلمون الأتراك بلاد الهند لما تيسر للهند أن تشترك فى الحركة الثقافية التى قامت فى غرب آسيا فى المصور الوسطى ، وكذلك لولا الضغط العربى والبربرى عن طريق اسبانيا لما انتشرت التجارة الألمانية البحرية فى بحر البلطيق .

ولم تنسج التجارة والعلاقات الثقافية بين آسيا (شرقاً ووسطاً وغرباً) وبين شرق أوروبا إلا بعد الفتوحات المغولية - ما بين القرنين الثالث عشر والخامس عشر - التى نشطت بها حركة تأسيس الشركات التجارية العالمية . وقد أصبحت اليوم هذه المسائل - وخاصة تأثير سيول الهجرة الجارفة من آسيا نحو العالم الخارجى - محل عناية عظمى عند كثير من العلماء . إن العرب والبربر وكذلك الأتراك المفلول لم يكن لهم من التأثير فى الحركات الثقافية للشعوب الأخرى، أن يثروا عوامل النهضة فحسب ، بل إن ثقافتهم ذاتها كانت غنية المادة غزيرة القوة ، ونجد اليوم أن دراسة الحركات الثقافية من الوجهة البسيكولوجية وعلاقتها الزمانية والمكانية إحدى المسائل التى تستغرق عناية المؤرخين والجغرافيين المعاصرين .

تكوّن الجغرافية الإسلامية أساس مثل هذه الدراسات، وقد بين باركرات وتوماشك وبارتولد وبسترانج وشفارتز بوضوح أهمية هذه المعلومات عن غرب وأواسط آسيا؛ فلو لا العلوم الجغرافية التاريخية الإسلامية لما وصل إلينا علم عن حياة المدن وثقافتها في غرب ووسط آسيا ليس فقط في العصر الإسلامي بل في زمن الساسانيين. وقد وضع فريش وماركارت ويعقوب ونيمت أهمية هذه الجغرافية لشرق أوروبا، كما وضعها رينو وساخاو وفرايد جنوب شرق أوروبا وجنوب شرق آسيا.

وإن مؤلفات علماء الجغرافية الأقدمين من العرب (البثاني والحوارزمي وسهراب) تعتمد في وصف أقاليم المعمورة على المصادر اليونانية. وأما الجغرافيون الذين يرجع أصلهم إلى وسط آسيا (مثل الجيهاني والكرديزي والمؤلف المجهول لكتاب حدود العالم، ثم البيروني) فقد خلصوا هذه المعلومات تدريجاً من التأثيرات اليونانية والانجيلية واليهودية.

ولسكن تتوفر المعرفة عن شرق آسيا وشرق أوروبا، كان قيام الدول الثلاث التركية المسلمة أعني القرأجانية (أو الأيليكية) في وسط آسيا والغزنوية في جنوب آسيا والبلغار المسلمين على شواطئ الدونجادا أثر عظيم، فتمكن العلامة البيروني من تدوين تواريخ مضبوطة عن شرق آسيا والاقيانوسية عن طريق التركستان الشرقية والبلق البحرية في جنوب وشرق آسيا، ثم عن شرق أوروبا عن طريق التجار البلغار والحوارزم، وأمكنه أيضاً عن طريق سفراء الصين والتركستان الشرقية الذين كانوا ينتمون إلى أصل تركي إسلامي وأتباع عن طريق البحر والهند إلى غزنة في أفغانستان الحاضرة، أن يستقي معلومات وبيانات عن القطب الجنوبي وراء المحيط الهندي. ويستفاد من سائر كتابات البيروني أن التجار المسلمين الأوائل من عهد الأمويين أسسوا مستعمرات في البحر الأخضر أعني المحيط الهندي حول جزائر جاوه، وتزوجوا من نساء تلك الجزائر.

وإني أظن أن كلام الجغرافي ابن رسته (طبعة دي جويه ص ٨٨٠) عن مكان في أرض الزنج حيث يكون النهار ست ساعات فقط، يرجح أنه كان يعني جنوب أستراليا، ولو أن القس أ. كايس الألماني وجبريل فيراند الفرنسي أرادا تعليل كلامه تعليلاً آخر.

وقد كان البيروني أول مسلم أورد بيانات بأسماء نهر أنغار في شرق سيبيريا وبأخبار السكان في مناطق بحيرة البايقال ومناطق أسكندناوه القديمة المسماة «ورنك» ثم عن صناعة المعادن في شمال شرق أوروبا، وكذلك عن البحر المنجمد الشمالي. وتمكن عن طريق التجار المسلمين في أفريقيا أن يحصل على معلومات قيمة عن جنوب أفريقيا، وعن موزمبيق (سفالة الزنج) وعن البلاد الواقعة جنوبى خط الاستواء، حيث يظن البيروني أن الوقت يكون هناك شتاء حين يكون عندنا صيفاً — وطبعاً لم يكن بين معلومات هذا العلامة المطلع أمثال جبال قاف

(الموجودة في المتقولات الاسلامية) ولا الخرافات اليونانية عن عجريب وهيبربورى (Agribbie ec Hyberborie) ثم عن سد بأجوج ومأجوج التي كثيراً ما بحث عنها الجغرافيون المسلمون الأقدمون في شمال بحر الخزر أو خلف جبال تيانشان ، فلم تكن في رأى البيرونى سوى الأجزاء الغربية من سور الصين ، كما يعتبره كذلك العالم التركستانى محمود الكاشغرى في خريطته ، والجغرافيون المعاصرون أيضاً مثل دى جويه ومارقوارت .

ومع هذا بقى الشرق الأقصى مجهولاً نوعاً ما عند البيرونى أيضاً ، فعنده أن الإقليم الثانى ينتهى حيث تنتهى الأقاليم : الخامس والسادس والسابع . أما في عهد المغول فلم تبق هناك بقعة لم تكن معروفة للمسلمين في شرق أوروبا وشمال شرق وجنوب آسيا . فالوزير المغولى في إيران (رشيد الدين) قد دون بيانات هامة مطولة عن الجغرافيا وعلوم وصف الأقاليم في وسط وشرق آسيا ، كما ترك لنا مؤلفات غن تاريخ الصين والهند وأوروبا جافلة بالصور المقابلة ، وتلك الصور توضح بدقة أشكال الصينيين والأوربيين وأزياءهم في ذلك العهد البعيد . ونجد في هذه الكتب نبذاً قيمة عن الصين والهند وأوروبا (وتوجد أحسن المخطوطات الباقية من هذه الكتب المصورة في مكتبة طوبقبوسراى باستانبول) وكان للجغرافيين المسلمين في عهد المغول تأثير في العلوم الجغرافية في الصين ، فإن الخريطة الصينية الرسمية التي يرجع تاريخها إلى عام ١٣٣١ هـ - كما أثبت البرت هرمان - إما أن تكون قد رسمت بإرشاد الجغرافيين المسلمين أو إنهم هم الذين وضعوها . وهناك مهندس مسلم آخر هو قطب الدين شيرازى خدام المغول في إيران ، وقد رسم خريطة عام ١٢٩٠ للبحر الأبيض المتوسط وقدمها إلى الملك المغولى الأيلخانى أرغون خان ، كما أن المغوليين جنكيز وتيمور وغيرهما استخدموا كثيراً خرائط الجغرافية لأغراض حرية فنية . وفي عهد خلفاء أرغون - وهما غازان وأولجايتو - ألقت جغرافية للعالم اشترك في تصنيفها علماء من مختلف الأقطار .

ولكن مع الأسف لم يمكن العثور إلى يومنا هذا لا على الخرائط السالفة ولا على هذا المؤلف الجغرافى للعالم ، وما تلى ذلك من مؤلفات فهو فقير في مادته الأصلية . ولكن مع هذا فقد ترك لنا المغول - وخاصة تيمور - أوصافاً مفصلة لأسفارهم الحربية وخطوط زحف جيوشهم التي كان يرسمها لهم كتابهم المعروفون باسم بخشيه ، ثم ترجمت هذه الكتابات فيما بعد إلى اللغة الفارسية .

وقد تمكننا لأول مرة من الحصول على معلومات تختص في الجغرافية والمركز الاقتصادى لآسيا الصغرى وإيران عن طريق الجغرافيين والمؤرخين في عهد المغول ، كما عرفنا أيضاً لأول مرة عن طريق المدونين المغول - مثل رشيد الدين دوصاف ، وربانبة المراكب العربية (مثل أحمد بن ماجد وسليمان بن أحمد المهندي) - شيئاً عن طرق التجارة البحرية في جنوب

شرق آسيا والتي نشطت من جديد أثناء نفوذ المغول في إيران والصين كما وصلتنا معلومات وأخبار دقيقة عن جزر الأرخيبيل الملاي .

إن الجغرافيين المسلمين إذا ووزنوا بأمناتهم من اليونانيين تبين أنهم خطوا بالعلم خطوات واسعة مميزة كما استقصى ذلك بارتولد ، لأنهم اهتموا بحياة الشعوب المدنية والاقتصادية والثقافية ، أكثر مما اهتم بها علماء اليونان كما وصفوا عاداتهم ولغاتهم وعقائدهم .

ثم إن تعيين خطوط الطول والعرض للمدن كان مضبوطاً خاصة عن البيروني ، ووصف مراحل الطرق في البلاد كان أيضاً وافياً خاصة عند جغرافي العهد المغولي (حمد الله قزويني وحافظ أبرو) حتى إنه لو وضعت خريطة لإيران وما وراء النهر حسب معلومات هؤلاء لوجدناها لا تختلف اختلافاً بيناً عن الخرائط المستعملة اليوم .

ولكن مع الأسف نجد أن المصادر الجغرافية الإسلامية خاصة في الشرق نفسه ليست في متناول المهتمين بهذا الموضوع ، وكانت العناية حتى الآن موجهة نحو الطبقات القديمة للجغرافيين الأقدمين (ومنها ما نشره دي جويه ونالينو ومزيك) ، ولكن لم يترجم منها إلى اللغات الأوروبية سوى القليل (مختصر ابن خردادبه وقدّمه وجزء من الحوارزمي ثم المقدسي والبتاني) ولا يزال من المتعذر العثور على بعض مؤلفات أعلام الجغرافيين (مثل مؤلفات الجيهاني ومفصل ابن خردادبه ، وكتاب صور الأقاليم لرشيد الدين) ومعظم ما وجد إلى الآن من هذه المؤلفات لا يزال بهيئة مخطوطات محفوظاً في مكاتب الممالك المختلفة ، وهذه المخطوطات المبعثرة في المكتبات المختلفة لم يتح إلا للقليل من العلماء دراستها وهي دراسة غير كاملة (مثل بارتولد ولسترنج ، وإذن فهذه المؤلفات تصبح لها قيمة وفائدة الفنية إذا هي طبعت مشفوعة بالانتقاد والتحليل .

وإنني أقول : « الانتقاد والتحليل » ، لأن المصادر الجغرافية الإسلامية لها أخطاؤها أيضاً ، ومعظمها - وخاصة ما ألف بعد القرن العاشر - تبرز منه صورة مميزة للجغرافية التاريخية لذلك العصر أيضاً . فالجغرافيون - ما بين القرنين الحادي عشر والرابع عشر - كالأندلسي والدمشقي (وهذان مترجمان إلى الفرنسية) والبكري (ماعدا تقريره عن غرب أفريقيا) والعمرى (وهذا مترجم جزء منه) ومعجم البلدان لياقوت الحموي ، يصورون الدنيا ليس فقط كما رأوها هم بل كما وصفها المؤلفون الأقدمون أيضاً ، وكثيراً ما ذكروا ما كتبه هؤلاء الأسبقون دون الإشارة إلى أسمائهم . فثلاً الأندلسي يجمع بين تقارير الأقدمين من المؤلفين المسلمين واليونانيين مع تقارير معاصريه دون أن يذكر أن هذا المزج من عنده هو ، وهكذا انتقلت هذه الأمزجة فيما بعد إلى مؤلفات خلفه ومنهم ابن الوردي وابن سعيد الأندلسي .

لذلك أصبح من السهل أن يقع الإنسان في الخطأ فينسب تقارير المؤلفين الأسبقين إلى

المؤلفين المتأخرين . ومع ذلك فهذه التقارير إذا حقق بالبحث الانتقادي التحليلي مصدرها فقد يمكن في بعض الأحيان الوصول من وراء ذلك إلى بيانات عظيمة القيمة . وحتى المؤلفين في القرنين السادس عشر والسابع عشر مثل الشيخ أبي الفضل العلامي وأمين أحمد رازي في الهند وكاتب جلبي في تركيا ومحمود بن ولي في تركستان (وهذا الأخير مؤرخ من العصر المغولي المتأخر وقد عثرت على أهم مؤلف جغرافي له سنة ١٩١٤ من بخارى) قد استقوا معلوماتهم من مصادر موقودة الآن . كما أن أمين أحمد رازي استعمل مثل غيره كتابات جغرافية لرشيد الدين لم توجد للآن ، وهكذا نجد أنه إذا غنى بجمع ودراسة مثل هذه المؤلفات الإسلامية الجغرافية في العصر المتأخر دراسة تحليلية انتقادية ونشرت لكونت كنزاً ضخماً للمدققين من علماء تاريخ الثقافة العالمية .

وهذا أريد أن أعطي مثالا يرى كيف أن الذين أوجدوا العلوم الجغرافية الإسلامية كانوا يدركون تفوقهم على اليونان ويعتمدون بتقديرهم الشخصية ويعرفون حق المعرفة ما يجب عليهم أدائه نحو العلم . وهذا أذكر نبذة من كتاب لم يسبق نشره للبيروني عن أصول التحقيق الجغرافي ، وهذا الكتاب أتمه في سبتمبر سنة ١٠٢٥ في غزنة (في أفغانستان الحالية) والنسخة الخطية الوحيدة بخط المؤلف موجودة في مكتبة جامع محمد الفايح باستانبول (نمرة ٣٣٨٦) قال :

« إن غرضي هو معرفة خط الطول لبلد معين على سطح الكرة الأرضية وهو غزنة ، فأني الآن أمكنني أن أحقق خط عرضها ، أما عن خط الطول فقد عاقبتني عدة موانع عن إمكان التثبت منه ، ولكني لو كنت ألتبس لنفسى عذراً بهذه العوائق لكنت كافراً بأنعم الله تعالى الظاهرة والباطنة ، ثم بفضل ولي النعمة التي يسبغها علي (الأمير محمود الغزنوي) ؛ ولكن كانت هناك موانع أخرى وهي عدة مشا كل عامية وحلها أدعو الله سبحانه وتعالى التوفيق ولم يقل عزيمتي في سبيل حلها الوقوف على شفا الخطر روحاً وجسماً . وإني سأسارع في تحصيلها وإتمامها قبل حلول الأجل . فأني أقول إن معظم المعلومات في كتاب الجغرافية (لبطليموس) عن الطول والعرض لبلاد معينة من سطح الأرض مصدرها السماع من الناس من مختلفه شاسعة البعد وباستخدام هذه المعلومات لابد أن يكون لبطليموس قلة من الطريق الصحيح - وعلى كل حال فالأساس الذي بنيت عليه هذه المعلومات هو التسويع ، لأن تلك البلاد كانت متعذرة الوصول بسبب التباين الملى . نعم لأن هذا التباين الملى كان العائق الأكبر للسياحة في البلاد ، فنحن نرى أن بعض الشعوب - مثل اليهود - تعتقد أنها تكون مقربة إلى الله إذا اغتالت أضدادها من الشعوب الأخرى . أو أن بعض الشعوب - مثل الروم - كانت تعتبر الأجانب عبيداً ، وهذا

هون عاقبة ، أو أن السائح لكونه أجنبياً في تلك البلاد قد يعتقل وتحوم حوله الشبه المختلفة فيكون مركزه محقوقاً بالمخاطر .

أما الآن فقد تغيرت الظروف ، فإن الاسلام امتد من شرق الأرض إلى غربها حتى الاندلس فوصل شرقاً حتى حدود الصين وإلى أواسط الهند وجنوباً إلى الحبشة وبلاد الرنج (يعني جنوب أفريقيا والأرخبيل الملايوى وجاوه) وشمالاً حتى بلاد الترك والصقالبة (السلاف) وجمع الأمم المختلفة على أساس الألفة التي هي صنع « تفرد الله به » ، ولم يبق منهم إلا ما يكون من فساد ذوى العبث وقطاع الطرق وصارت البقية المعصرة على الكفر تهاب الاسلام وتعظم أهله وتهادئهم ، فأصبح آئذ تحصيل الأبعاد الجغرافية بالسماع أوئق وأصح ؛ فكثيراً ما نجد في كتاب الجغرافية (لبطليموس) بعض المواضع موقعها في شرق مواقع أخرى بينما تكون في الحقيقة المشاهدة غريبة الموقع وبالعكس . والأسباب التي أدت إلى هذه الأخطاء إما ناشئة عن خلط أبعاد المراكز التي بنيت عليها خطوط الطول والعرض ، وإما ارتحال الأقوام من هذه البلاد إلى مواطن أخرى مع نقل أسماء هذه البلاد معهم . انتهى كلام البيرونى . وإذا تبيننا من هذا المثال كيف أن البيرونى كان يعلم جيداً أنه ومعاصروه من الجغرافيين المسلمين في ظروف أسعد من ظروف المؤلفين اليونان ، فإننا نرى أيضاً في كتب أخرى لهذا العلامة أنه استفاد من هذه الفرصة أيما استفادة لكي يزيد في معلوماته وينميها ، ويبدو لنا أنه كان دائماً شغوفاً بالاطلاع على كل جديد في العلوم التي نهضت باتساع الدول الإسلامية في جنوب ووسط آسيا في عصره .

ثم إن لهذه القطعة التي ذكرناها للبيرونى مغزى آخر فهي ترينا كيف أن علماء خوارزمياً (خوارزم الآن في تركستان الحاضرة) قدر انتشار الاسلام في وطنه وفي بقية العالم أجمع ورحب بتعاون الشعوب المختلفة في سبيل المدنية نتيجة لدخولها في حوزة الاسلام .

وفي خوارزم - في عهد البيرونى - لم يكن هذا التعاون مقصوراً على المسلمين بل تعداه إلى المسيحيين . أما الآن فإننا نعيش في زمن يطغى فيه الشعور القومى شيئاً فشيئاً في أنحاء العالم ، وكذلك ظهرت بين المسلمين من غير العرب بسبب نمو ذلك الشعور مضادة لعالمية الاسلام وديوع اللغة العربية ، ولكن يصبح من الخطأ الفاحش أن يهمل ذلك الدور الإيجابي الذي لعبه تعاون الشعوب في العصور الوسطى في آسيا بسبب الاسلام أو أن تعد أعمال علماء المسلمين - سواء أكانوا إيرانيين أم أتراكاً أم هندوياً أم غيرهم من الشعوب في نظر الحركات القومية المعاصرة - باطلاً أو جديرة بأن تطرح جانباً أو أن تنسب مؤلفاتهم التي كتبت باللغة العربية إلى زعامة العرب السياسية في ذلك العهد .

ولم يفث البيروني أن يقدر - بشعور صحيح أيضاً - أثر التعاون الذي قامت به الشعوب المختلفة في ميدان الثقافة في مؤلفاته الأخرى . وكان الاسلام في نظر البيروني مدينة أكثر منه ديناً، واللغة العربية لغة علمية أكثر منها لغة للقرآن .

وكان توطيد قوة الاسلام في مبدأ الأمر في وسط آسيا قائماً على التوافق بين انتشار النفوذ السياسى للعرب وبين ميل تجار تلك البلاد إلى ترك نظام الإقطاعيات الذي كان سائداً هناك، وقد خدموا الاسلام إذ ذاك مثل المبشرين حتى في الأماكن الشرقية النائية الخالية من النفوذ السياسى للعرب ، مثلما أنهم فيما بعد في الربع الأول من القرن الثالث عشر الميلادى (السابع الهجرى) خدموا جنكيز المغوسى ضد إخوانه المسلمين مثل خوارزم شاه وغيره من ملوك الطوائف الذين كانوا يحكمون على نظام الإقطاعيات الذي يعمته هؤلاء التجار؛ وذلك لأنهم رأوا مصلحةهم التجارية في ذلك .

ثم إن احتلال العرب للتركستان لم تصحبه ذكريات مؤلمة عند الشعب التركستانى بعكس ما كانت الحال عند الشعب الإيرانى . وقد تكيف الاسلام بالتدرج بما يطابق روح تلك البلاد حتى إنه في زمن البيرونى كانت السلطة السياسية كلها في أيدي المسلمين من أهل البلاد أنفسهم ، فكان الاسلام عندهم ديناً يحمل فكرة إرشادهم إلى سبيل التعاون بين الشعوب المختلفة فصادف ذلك هوى في أفئدة علماءهم مثل البيرونى .

ويجب أن نتذكر جيداً أن ما أمكن الإتيان به من العظام في التاريخ قام على أساس تعاون الشعوب في فكرة واحدة ، وذلك لم يكن جلياً في تاريخ نهضة الثقافة الاسلامية في العصور الوسطى فقط بل في جميع أدوار تاريخ البشر .

وعندى أنه إذا عني بنشر المدونات الجغرافية الاسلامية مع التحليل والانتقاد كما بينت آنفاً، عن طريق اهتمام الهيئات الاسلامية الحاضرة من جهة، والتعاون العملى مع علماء أوروبا من جهة أخرى، لأمكن أن تهيأ تربة صالحة لبذور التعاون الجديد المثمر لهذه الدول والشعوب الاسلامية .

ومن الواضح الجلى أن دراسة تاريخ ثقافة العالم الاسلامى تقوم على أساس متين إذا لم تبق كالسر محصورة بين علماء اللغة والمستشرقين ، بل باتساع نطاقها من جهة البحث والتدقيق حتى تشمل كل الدوائر العلمية العامة . وكذلك إذا أصبحت هذه المصادر الشرقية لجميع فروع العلم في متناول معاهد العلم وكتلياته التى تشغل بالبحوث في تاريخ حضارة البشر .

فلهذا أعتقد أن ترجمة هذه المصادر الجغرافية الاسلامية وسائر مصادر تاريخ المدينة الاسلامية إلى أمهات اللغات الأوروبية واجب تشارك في تأديته جميع الشعوب المتحضرة في العالم؟
أحمد زكى وليدى